

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل

[550] وإضافة إلى ربوبيته فإنَّه يمتلك القدرة على المعاقبة، وإضافةً إلى إمتلاكه للقدرة على المعاقبة، فإنَّ أبواب رحمته ومغفرته مفتوحة للجميع. ثمَّ يخاطب البارئ عزَّ وجلَّ نبيَّه الأكرم في عبارة قصيرة وقويَّة (قل هو نبيّ عظيم أنتم عنه معرضون). فما هو هذا النبيّ الذي أشارت إليه الآية ووصفته بأنَّه عظيم؟ هل هو القرآن المجيد؟ أم أنَّه رسالة النبيِّ؟ أم هو يوم القيامة ومصير المؤمنين والكافرين؟ أم هو توحيد الله؟ أم كلُّ هذه الأمور؟ ولكون القرآن مشتملاً على كلِّ تلك الأمور، وهو الجامع بينها، وأنَّ المشركين أعرضوا عنه، لذا فإنَّ المعنى الأوَّل أنسب. نعم، فهذا الكتاب السماوي العظيم هو نبيّ عظيم، وعظمته كعظمة الكون، وهو نازل من قبل خالق هذا الكون، أي من الله الخالق العزيز الغفار والواحد القهار. النبيّ الذي لم يتقبَّل عظمته الكثير من الناس حين نزوله، فمجموعة سخرت منه وإستهزأت به، وأُخرى اعتبرته سحراً، ومجموعة ثالثة اعتبرته شعراً، ولكن لم يمض بعض الوقت حتَّى كشف هذا النبيّ العظيم عن أسرارهِ، ليغيِّر مسيرة التاريخ البشري، ويظلَّ العالم بظلاله، وليوجد حضارة عظيمة ومضيئة في كلِّ المجالات، وممَّا يسترعي الإنتباه أنَّ الإعلان عن "النبيّ العظيم" تمَّ في هذه السورة المكيَّة في وقت كان فيه المسلمون - على ما يبدو - في أشدَّ حالات الضعف والعجز، وكأنَّ أبواب النصر والنجاة مغلقة أمامهم. وممَّا ينبغي ذكره أنَّ عظمة هذا النبيّ العظيم ليست واضحة حتَّى يومنا هذا للعالم بصورة عامَّة، وللمسلمين بصورة خاصَّة، والمستقبل سيوضِّح تلك العظمة.